العولمة الثقافية ومصير الحضارات
مقاربة أميركية –روسية

د. سهيل فرح / روسيا.

ملخص باللغة الإنجليزية

Displayed in this research are various humble ideas and future expectations regarding the seven crises that are currently being encountered by societies all throughout the world. These ordeals, contemporaneous with modernism and post-modernism, are contrasting or dare one say analogous to the Seven Wonders of the World; the wonders that dazzle the eyes and overwhelm the mind with their mystery

...

مع بداية الألفية الثالثة هناك أفكار يرددها عدد كبير من المنظرين الغربيين تقول بعد أن انتهى الغرب من عولمة الاقتصاد، فالخطوة الثانية يجب أن تكون عولمة الثقافة. هذه التي يفترض أن تشكل ركيزة من الركائز الأساسية لدعم بناء النظام العالمي الجديد. وعولمة الثقافة أمر سعت وتسعى له النخب الحاكمة وأساطين المال وقادة الرأي في الولايات المتحدة الأميركية منذ انتصارها في الحرب الباردة. والذي شجعهم على ذلك هو تمكنهم بوسائل متنوعة من الإمساك بالمفاصل الأساسية المال والقوة والسلطة والمعرفة على المستوى العالمي. فالعولمة بكل وجوهها السلبية والإيجابية وكما يشير إلى ذلك الكاتب الأميركي توماس فريدمان "هي شاملة وسريعة وواسعة النطاق". تفرض قواعدها على الجميع دون أن تترك لهم حرية الخيار. فهي تتسع لتمتد إلى 195 دولة. خالقة بذلك حضارة عالمية واحدة من خلال ما تفرضه من أحكام وقواعد متجانسة تتجاهل الظروف الخاصة لأي دولة أو مجتمع. متناسية بذلك تمايز الهويات الثقافية والحضارية للشعوب"[1]. في المحاولة التي يجهد الأميركيون فيها لإقامة نظام عالمي جديد يريدون من العولمة الثقافية أن تكون مؤمركة تمامًا. فأمام التوجه الذي يسعى إليه كل العالم تقريبًا، أو على الأقل أعرق الحضارات القائمة عليه، والذي يطرح مقولة "عالم واحد الثقافات متعددة"، يسعى غلاة العولمة المؤمركة لأن يفرضوا على العالم بأسره مقولة "عالم واحد لثقافات متعددة". وهكذا يقع هؤلاء في فخ نوع جديد من المركزية الغربية هو "المركزية الأميركية" والتي تعتمد

بشكل أساسي على قوتين أساسيتين: قوة التقنيات المتقدمة، ولا سيما التقنيات العسكرية والمعلوماتية، والقوة المالية. والعنصر الأساسي المغيب عن هذه "المركزية" هو الجوانب الأكسيولوجية الإنسانية.

وهنا تقفز للذهن مجموعة من الأسئلة التي تقلق كل الذوات المفكرة على هذا الكوكب. هل بإمكان هكذا طرح للعولمة الثقافية تدمير عالم اليوم المتنوع الثقافات؟ ما هي الآليات التي تتحكم الآن وفي المستقبل القريب بالحضارة الرائدة حالياً والحضارات الأخرى المحلية؟ هل ما يجري الآن من تواصل بين الشعوب والأمم والحضارات من تأثر وتأثير، من تقارب وتباعد عن طريق موجات الهجرة وتبادل البضائع والتقنيات والخبرات والمعارف يؤدي إلى انتهاج نمط حضاري واحد (مادي وثقافي) على هذا الكوكب؟ هل يؤدي التركيز على تطور الوعي الذاتي للثقافات المحلية إلى حتمية الصراع بين الحضارة الرائدة مع الحضارات الأخرى، أم إن هذا قد يولد الحاجة إلى الحوار والشراكة؟ وفي أكثر الأمنيات وردية، هل من إمكانية واقعية في المستقبل لأن تلتقي الثقافات على مجموعة من القيم الإنسانية والروحية والجمالية المشتركة لكي نُعطي للحياة على هذا الكوكب معنى أو صورة أكثر إشراقاً وأملاً؟ هذه الأسئلة وغيرها التي تشكل هواجس بحثية لدى أوساط أكاديمية معينة لا تزال تحركها الرغبة في أن يكون لها الكلمة الأولى في رسم الخارطة الآنية والمستقبلية للحضارة الإنسانية. وأعني بذلك الأميركيين والروس. وإذا كان الحديث في هذه المقالة يتناول بالعرض والتحليل والتقويم وجهة نظر مدير معهد جون إيلين للدراسات الإستراتيجية وأستاذ جامعة هارفرد الأميركي صموئيل هانتنغتون، ورئيس تحرير مجلة "المناخ"، المستشرق وأستاذ جامعة موسكو الروسي بوريس يرسوف، فإن هذا لا يعني بطبيعة الأمر بأن الأول يعكس وجهة النظر الأميركية في العولمة الثقافية والثاني يعبر عن وجهة النظر الروسية فمن نافلة القول أن في داخل كل جسم حضاري مواقف متنوعة لا بل متناقضة حول هذه المسألة أو تلك.كما إن اختياري لوجهتي نظر أكاديميتين، لا يعني بأن هذا الوسط يملك الرؤية السديدة لتحرير الناس من أوهامهم عن أنفسهم وعن الآخرين، ولا يجعلني أميل إلى أن تخصصاتهم ورتبهم العلمية العالية تؤهلهم دائماً لأن يساعدوا القارئ لأن يدرك بشكل أكثر موضوعية جوهر الثقافات وأهمية التواصل والتفاعل بينها، بل إنني أصبحت أكثر حذراً بالنظرة إلى جهود هذا الوسط الذي عادة ما يقع إما في أسر الرؤية الذاتوية للأمور، أو في أسر المايسترو السياسي المتربع على سدة الحكم في بلده.

على أية حال إن التركيز في هذه المقالة على كل من هانتنغتونويرسوف قد يكون واحد من أسبابه هو الانطلاق من فرضية تقول بأن هذين المفكرين الاكاديميين يشكلان مرجعية ثقافية ملحوظة في بلديهما. ولن كل منهما يعبر عن الهاجس الثقافي العام الذي يقلق حضارته ويعكس بعض جوانب نقاط القوة والضعف عنده وعند غيره. فالأول بمقاربته للعولمة الثقافية يستند اقتصاديا إلى بلد يشغل حصة الأسد في منظومة العولمة وبالذات الشق المادي منها في حين إن إسهامه في الجانب الثقافي الاكسيولوجي يحتل المرتبة الدنيا، في حين الثاني يستند إلى بلد يعيش على ضفاف العولمة الاقتصادية مستفيداً من فتاتها ضمن الحد الأدنى، في حين إن رصيده الثقافي والروحاني هو من الضخامة بمكان، بحيث يؤهله في المستقبل لأن يكون حضوره أعظم شأناً في المشهد الحضاري والكوني. ولكي لا نتسرع في الوصول إلى الاستنتاجات أو الفرضيات المحتملة، لنترك لكل من هانتنغتونويرسوف يعبران عن موقفهما من المسألة المطروحة.**عولمة هانتنغتون**

يشكل الاختلاف والتنوع، حسب رؤية هانتنغتون، مصدراً للنزاع. من هنا فإنه يعتبر بأن الحضارة الغربية تختلف بصورة أساسية، لا بل تتناقض مع الحضارات الكونفوشيوسية واليابانية والهندوسية والبوذية والإسلامية والسلافية الأرثوذكسية. من يقرأ أفكاره الأولى في مقالته المعروفة The clash of Civilisations يلمس عدم حماسة لا بل مناهضة لفكرة التنوع الثقافي. ويؤكد على إن الصراع المستعر بين الحضارات هو سمة العصر. ولا يتحمس للأفكار أو الأطروحات التي تشدد على أهمية تقارب أو تفاعل أو لقاء الثقافات لأنه يراها من المسائل الصعبة جداً. وبعد أن تراجع قليلاً عن هذه الأفكار في كتابه الأخير الذي صدر في عام 1996 تحت عنوان معدل The clash of civilisation and theremaking of the world order حاول فيه أن يشير إلى فرضية قيام حضارة عالمية واحدة مستندة إلى التقارب الثقافي بين حضارات متمايزة في قيمها وتوجهاتها وممارساتها. إلا إنه في قرارة نفسه أبقى على قناعته التي تشدد على أفضلية الحضارة الغربية التي تشكل الولايات المتحدة محورها. ودعا حكومته "لانتهاج سياسة تحمي وتعزز المصالح والقيم والثقافة للحضارة الفريدة والغالية التي تتشارك دول الغرب فيها"(2).

فهو دائماً يتوقف عند الدور الريادي الذي لعبته أميركا في نشر "القيم الفردية والليبرالية والدستورية وحقوق الإنسان وأفكار المساواة وحرية المعتقد وحكم القانون والديمقراطية وفصل الدين عن الدولة"(3).

صحيح القول بأنه وقبل دخول الولايات المتحدة المرحلة الكسموبوليتية كانت قد عملت ذواتها المفكرة على أن تجعل من هذا البلد واحة للحرية وللانصهار الإثني. وعملت نخبة على تكوين المثلث الأميركي للعقلية الأميركية المستندة إلى الديمقراطية والليبرالية والنزعة البيوريتانية في المسيحية الغربية. هذه القيم كانت تشغل فعلاً اهتمام تلك الذوات والنخب قبل أن تصل أميركا للعب دور الدولة الأقوى على الساحة العالمية. فبعد الفترة التي انتهت فيه أميركا من حروبها الداخلية وقبل دخولها في الحرب العالمية الثانية تمكنت بنجاح ملحوظ من احتواء مجمل المجموعات الإثنية والدينية التي قدمت إليها من أماكن مختلفة من العالم. وتمكنت النخب الأميركية من أن تجعل من نيويورك على سبيل المثال لا الحصر نموذجًا اقتصاديا متقدمًا وبؤرة فنية. إن مساحة الحرية الفردية التي كفلها فعلاً الدستور الأميركي ساعدت تلك المجموعات لأن تعبر عن القلق الوجودي لهوياتها الثقافية، تلك الهويات التي حركها دائمًا عقدة الانتماء والخوف المضني من الآخر.

غير إن تلك الأفكار ومعها مجمل الممارسات لم تكن وراءها فلسفة بريئة. فلقد كشفت عن وجوه متنوعة من التطرف أخلت بالكثير من نقاط التوازن التي تستند عليها العلاقات بين الأفراد والشعوب. فلقد أعلت من المادي على الروحي، ومن البراغماتي - الفر داني على الإنساني - الجماعي. وبرز النهج النرجسي المتمركز على "الأنا" القومية والحضارية على حساب مصالح الجماعات القومية والحضارية الأخرى. وبدت كل القيم الثقافية والأخلاقية وكأنها من مخلفات التاريخ البائد. الأمر الذي أوصل هذه الحضارة إلى نوع من العبثية التامة وعدم الاكتراث بحرية وحقوق الآخرين. وأضحت نزعة الاستهجان والاستعلاء والتفرد هي العناوين الأساسية لعلاقتها بالحضارات الأخرى. وهذا الذي ترك ويترك ردود فعل متفاوتة من الاستياء على مستوى كل الثقافات تقريبًا. وكل منها تعبر عن رفضها لهذا النهج بأساليبها الخاصة إما عن طريق الرغبة في التقاسم البراغماتي لثروات الأرض، أو عن طريق الرفض والمجابهة، وإما عن طرين الانكفاء السلبي على الخصوصية القومية والدينية. وهانتنغتون هو إذن ابن حضارته المنتشية بانتصاراتها على الغير يتنبأ بمستقبل مشئوم للعديد من الحضارات الأخرى ويحكم عليها بالتكسر والتمزق التدريجي. ويعتقد بأن البعض منها قد ينقذ نفسه من السقوط في هاوية الأفول السريع وبالتالي الانقراض، إذا ما خلع عن نفسه عباءة الخصوصية الثقافية وتمكن من ركب قطار العولمة المغربنة ويذكر منها المكسيك وتركيا وروسيا إلا إنه يفترض بأن هذا البلد الأخير

هو المرشح الأكثر من غيره للتمزق، ظنًا منه بأن نخبه ورأيه العام وفعالياته الثقافية والدينية في حال نزاع دائم مع قيم الحداثة وقيم العولمة الثقافية.

**عولمة بيرسوف

من يتتبع توجهات العقل الحاكم في روسيا وأطروحات النخب السياسية والفكرية والروحية الموالية للحكم أو المعارضة له، يلمس بأن هناك حالة من القلق الوجودي العميق عند الحاكم والمحكوم حيال مسيرة العولمة الاقتصادية والثقافية. فالبعض المستفيد منها وبالذات الذي يطلق على نفسه اسم التيار "الديمقراطي" هو متماه مع العولمة وحريص على إبراز إيجابياتها فقط، في حين لا يرى التيار المعارض لها والذي يضم في صفوفه تيارات متعددة: القومي والأرثوذكسي واليساري، لا يرى في العولمة إلا بادرة شؤم على روسيا لذا فهو حريص إلى أن يبين سلبياتها الطاغية.

وبيرسوف الذي يجهد في كتاباته لأن يحمل راية الموضوعية الأكاديمية يجد نفسه شديد الالتصاق بالتيار الثاني. فما يعيبه على أنصار العولمة في بلاده وعلى المستوى الأميركي والعالمي هو تركيز هؤلاء على فوائدها والإعلاء غير الواقعي من إيجابياتها.

إن عملية التواصل الحضاري والثقافي على المستوى الغربي - الروسي والغربي - العالمي لا تجري حسب رأيه بين أطراف متكافئة، أو بين نمطين متساويين من النمو الحضاري. فهو يقر بالإنجازات الخارقة التي حققتها الثورة المعلوماتية التي فتحت المجال واسعًا للتواصل والتفاعل بين الشعوب. فمن العوامل المحفزة للتطور حاجة البلد في مرحلة تاريخية معينة إلى عامل أو عنصر خارجي ليوقظ فيه دينامكية جديدة تحرره من ركوده. أو أن تكون حاجة تفرضها حركية الحياة على جماعة من البشر تنتمي إلى نسقين ثقافيين متنوعين، فيحدث بذلك تبادل مفيد للآراء والخبرات والمصالح. كما أن التحليل المقارن هو من المهام الحيوية لكل الطاقات الفكرية في هذه الأمة أو تلك من أجل توسيع دائرة الوعي النقدي لأوهام الذات والآخر وأيضًا لتوطيد الإيجابي في ذاتية الأنا والأخر. كل هذه المسائل والعوامل ليست مشروعة فقط بل إن الإقبال عليها ضروريًا جدًا لإغناء عملية التبادل والتفاعل بين الحضارات. غير إن الشيء الذي يعيبه بيرسوف على مروجي العولمة الثقافية هو للنهج المعتمد على إرادة التوسع والغزو والهيمنة لدى حاملي الرايات الحضارية الرائدةوتلك الإرادة موجهة بشكل أساسي لتكسير الجانب الأكسيولوجي

والروحي لدى الحضارات الأخرى. فهو يقول: "في عصرنا هذا تتلقى الضربات تلك الثقافات العريقة التي لا تتطابق روحها مع ماهية "الثقافة المعاصرة". إن قيم الخلاص، الخير، التآخي، الحقيقة، الوفاء، التضامن بين البشر، أضحت كلها وكأن لا حاجة لها في عصر الحداثة، لا بل تعتبر ضارة ومعوقة لمن يسعى للمساهمة بنجاح في حقبة الحداثة. وأضحى تراث تلك الثقافات وكأنه من محفوظات المتاحف ومن النصوص المختارة، أو من المواد الثقافية التي يتم الاحتفاظ بها فقط من أجل عرضها والاحتفال في المناسبات"(5).

فالقيمون على صوغ الخطاب الثقافي للعولمة لا يشغل بالهم التركيز على النقاط والجوانب التي توسع من القواسم والمساحات المشتركة بين الحضارات، فهم على العكس من ذلك يعبثون بكل قيم الحوار والتفاعل الإيجابيين ويخلقون ثقافة "اللاحوار" و"اللاتسامح" وبالتالي فهم يقدمون الدعم الموضوعي لكل قوى "التعصب" و"اللاتسامح" المتواجدة داخل نسيج الحضارات المحلية وبالحصيلة فإن هذا وذاك يهيئ التربة الدائمة للفرقة والتنازع والصراع والحروب.

وفي معرض تقويم يرسوف لآثار العولمة على بلاده يميل إلى إن البصمات التي تتركها على الجسم الروسي قاتمة، غير إنه يخلص إلى القول بأن روسيا ورغم الوهن الآني الذي تعيشه على أكثر من ميدان تبقى تشكل العقبة الكأداء أمام انتصار الجانب العدواني والسلبي في العولمة الاقتصادية والثقافية. ويرى في روسيا صاحبة الجغرافيا الأوسع على هذا الكوكب، وفي رصيدها العلمي والفكري والروحي الكبير، وفي قوتها العسكرية، وفي تجربتها الغنية مع كافة شعوب الأرض وفي محاولة توسيع فتوحاتها العلمية في الفضاء والكون، يرى فيها القوة الواقعية التي بإمكانها أن تغير فعلاً من مسارات العولمة السلبية.ما يتمناه يرسوف لبلده قد يشاركه فيه قوى وأناس كثيرون على هذا الكوكب لأن الجميع يشعر بقلق كبير على مصير كل الحضارات. غير إن قيم العولمة أضحت تدخل بقوة في أنماط تفكير وسلوكيات الروس. وبالذات الذين يعيشون في المدن الكبرى. كما إن قيم الغرب البراغماتية والعقلانية الصارمة بدأت تهب بقوة في الفضاء الثقافي الروسي. فروسيا الآن هي أشبه بمزيج من "روحانية الهند والقوة العسكرية لألمانيا" عقلها أقرب إلى فلسفة الغرب وقلبها يرتاح أكثر إلى روحانية الشرق وشخصيتها الثقافية تتراوح بين هذا وذاك. ولكون الذات الروسية تحوي من نقاط القوة والضعف، من نقاط الانسجام والمتناقضات، فإن هناك حقلاً مغناطيسياً واسع المدى والذبذبات والتجاذب يعكس حالة توتر حادة وملحوظة في مناطق الخيال والنفس والغريزة والعقل الروسية ويترك انعكاساته وخياراته

على مجمل أنماط التفكير والسلوك عند الروس.

فالثقافة الروسية التي يحرص حماتها السلاف والأرثوذكس لأن يحافظوا على روحها الكلاسيكية يصطدمون مع طموحات وضغوطات الإثنيات والأديان والثقافات الأخرى المتواجدة على أرضها، كما إنهم لا يستطيعون إغلاق النوافذ الروسية أمام رياح العولمة. غير إن الشيء الواقعي والمؤكد حضوره في الشخصية الروسية، بأن لديها من القوة المتنوعة الأشكال والمضامين ما يجعلها ربما مؤهلة أكثر من غيرها لأن تعمل على إقامة عالم متعدد الأقطاب وأن تسعى لتصحيح مسيرة العولمة. ولأن تدخل بنشاط في المستقبل في مشاريع غزو الفضاء والكون.

العولمة ومستقبلها

بعد هذه الجولة التحليلية في مفهوم العولمة من الوجهة الأميركية والروسية. فإننا لا نستطيع الموافقة على آراء البعض بأن العولمة حالة مؤقتة مصيرها الموت القريب والفناء. فالعولمة هي حالة دخلت في اقتصاديات وثقافات كل الدول مشكلة بذلك ظاهرة قد لا تشمل الكرة الأرضية فحسب بل إنها قد تمتد في المستقبل لتكون كونية. المبدأ الطاغي على مسيرتها الآنية قد يغلب فيه السلبي على الإيجابي ضمن معادلة الأقوى والأضعف. إلا أن تجارب الحروب والصراعات والنزاعات بين الحضارات تدل على إنه من خاصرة الصراعات الدينية تنشأ فكرة التسامح. ومن باطن الصراعات الطبقية تنبثق فكرة الشراكة ومن خضم النزاعات القومية تنبثق فكرة التعاون. هي واحدة من جدليات الوجود والتناقض كما عبر عن ذلك هيغل وغيره.

لا بد في هذا السياق من تعميق روح المسؤولية و الحوار و الأخلاقية بين حضارتنا الإنسانية الواحدة. فالإحساس العميق بالمسؤولية كما يشير إلى ذلك المفكر الألماني هانس جونس[7] يوصل الإنسان إلى تشكيل علاقات أخلاقية جديدة من خلال الترابط بين القيم الأنسانيةو التكنولوجيا.

كما إن التأكيد على ثقافة الحوار واللقاء وترسيخ مبادئها على كل المستويات والعلاقات التي يتوجب أن يبدأها الإنسان من نفسه ليعممها على الدائرة الأقرب فالأبعد لتصل إلى ثقافة التواصل بين الأمم والحضارات هي الكفيلة على حد قول هابر ماس أن تولد قيم أخلاقية جديدة في عصر ما بعد الحداثة الذي ساهم بدوره في تفكيك الأنا الفردية والقومية. فلا ضير من عالم

متنوع الثقافات، متعدد الانتماءات. إلا أن هذا العالم بحاجة ماسة لكي يثقف أولاده على القواسم الأخلاقية والمساحات الإنسانية المشتركة. وهذه الثقافة هي الوحيدة الكفيلة بالحفاظ على الجانب الا ٔكسيولوجي في الحضارة البشرية.

** المراجع والمصادر

(1)Thomas L. Fridman,NewYork Times, Sept. 1997

(2) الغرب وبقية العالم: بين صدام الحضارات وحوارها، (بيروت، مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، 2000)، ص 173.

(3) المرجع نفسه، ص 200.

(4 بوريس يرسوف، "بنية العولمة، التفاعل، التصادم أم الانهيار"، من كتاب، حوار وتفاعل حضارات الشرق والغرب وخيارات القرن الواحد والعشرين، (موسكو، 2001) ، ص 124.

5) المصدر نفسه، ص 127.

(6) الحضارات: تحليل مقارن، إعداد بوريس يرسوف، (موسكو 1998

(7)voir: Hans Jonas. Le prinipe de Responsabilité, une Ethique pour la Civilisation Technologique. (Paris, ed. Le Cerf, 1992.